



جمهور البلاغات المعاصرة، سلطة الضوء أم تبعية الظل؟

The Audience of Contemporary Rhetoric: Authority of Light or Dependence on Shadow?

هناة عبد الرضا رحيم الربيعي

جامعة البصرة، كلية التربية للبنات (العراق)، hanaa.raheem@uobasrah.edu.iq

ملخص:

يتناول البحث درجة تحقق السلطة المطلقة للبلاغة التراثية مقابل البلاغات الوافدة في المشاريع المعرفية التي تأسست على موقف نقدي من المنجز البلاغي التراثي العربي في جزئية الجمهور المتلقي. وي طرح البحث الاشكالات التي تعترض جمهور البلاغات المعاصرة قياساً إلى بلاغة التراث العربي، تحقيقاً لهدف مهم هو قياس مدى تأثير المشاريع المعرفية البلاغية المعاصرة بخطاب السلطة عبر مفهوم المتكلم الذي يفرض وجوده دائماً على المخاطبين، في مقابل نمو دور جمهور المتلقين وازدياده. إن النتائج التي توصل إليها البحث تدور في فلك فكرة محورية قائمة على أن المشاريع المعرفية التي استعرضها البحث تتباين في جزئيات كثيرة منها مع البلاغة التراثية العربية.

كلمات مفتاحية: بلاغة؛ جمهور؛ تجديد؛ تطوير؛ معاصرة.

Summary:

The research deals with the degree of achievement of the absolute authority of heritage rhetoric against incoming communications in knowledge projects that were based on a critical attitude towards the Arab heritage rhetorical achievement in the receiving audience. What we raise in this research are the problems facing the audience of contemporary communications compared to the eloquence of

the Arabheritage The fadings of the research revolve around a central idea based on the fact that the cognitive projects reviewed by the research differ in many parts with the Arabic traditional rhetoric.

Keywords: rhetoric, audience, renewal, development, contemporary.

. تقديم:

شهد العصر الحديث مجموعة من التحوّلات الفكرية والثقافية والسياسية الهائلة والسريعة التي انتجت لنا مجموعة من المشاريع المعرفية، التي تأسست- في جزئية منها- على موقف نقدي من المنجز البلاغي التراثي العربي، وبما أنّ (الجمهور) يمثل كلّ متلقٍ بلاغيّ على سبيل الجمع المقابل للمفرد؛ لذا فإنّ هذا المفهوم ينطبق على أكثر من مشروع بلاغيّ طرح في العصر الحديث من قبل الدارسين؛ هذا المفهوم تجسّد في مشروع كلّ من:

- الدكتور محمد العمريّ عبر مفهومه للبلاغة العامة.

- البلاغة الحجاجية (الجديدة) عبر تيار واسع من البلاغيين المعاصرين الداعمين لها.

- الدكتور عماد عبد اللطيف عبر مفهومه لبلاغة الجمهور.

تلت هذه المشاريع والتوجّهات مجموعة من التأليفات المتفرقة الساندة أو المحلّلة، أو المطبقة لها على نماذج من التراث العربيّ وغيره من النصوص الإبداعية المعاصرة، ركّز أصحاب هذه المشاريع الضوء على الأثر الذي تحدثه بلاغة التراث عبر قوانينها السلطوية على الجمهور من دون ذوبان شخوصهم في شخصية المتكلّم، وهذا عمل يُحسب لأصحاب هذه المشاريع من حيث إنهم التمسوا سبباً قوياً وداعياً أوجب إعادة النظر في متعلّقات مباحث البلاغة، في جزئية الجمهور، وقياس مدى تأثرهم بخطاب السلطة عبر مفهوم المتكلّم الذي يفرض وجوده دائماً على المخاطب، سواء كان مفرداً أم جماعة، وبما أنّ المفرد قد لا يشكّل قوّة رافضة لهذا التسلّط فإنّ جمهور المتلقين قد يشكلّون قوّة ضاغطة ورافضة لتيّار التسلّط الذي يشكّله المتكلّم على وفق قوانين بلاغة التراث وقواعدها، وما طرحه عن جمهور البلاغات المعاصرة هي الإشكالات التي تعترض هذا المفهوم قياساً إلى بلاغة التراث، من أمثلة: مشروعيتها، وعلاقتها ببلاغة التراث، والآليات المشتركة بينهما، وهل يمكن عدّها وسيلة من وسائل التطوير؟!

ولقد أطلقنا في العنوان مصطلح (الظلّ) المقابل لمصطلح (الضوء) من منطلق أنّ الضوء يمثل (بلاغة التراث العربيّ) التي اهتمت بها كلّ المحاولات التجديدية من باب

التوصيف، فهي تشكّل تكويناً واضحاً للدارسين عبر انتقالاتها المتعدّدة في الدرس اللغويّ العربيّ، وعملنا في البحث هو تشخيص المشاريع البلاغيّة المطروحة من حيث استقلاليتها عن هذا الضوء أو تبعيتها له فيما يخصّ الجمهور بوصفه متلقياً أو مستجيباً، وفق التساؤلات المطروحة، والمبرّر لهذه التسمية ما ورد في الأدب من النصوص الشعبيّة التي خرجت عن قواعد الشعر العربيّ ولكّنها شكّلت استجابة واسعة لدى الجماهير، ففرضت وجودها على النقاد، عُرفت بتسمية (الأدب الرائج) أو (أدب الظلّ)⁽¹⁾.

المشروع البلاغيّ العربيّ التراثي، بدء الانطلاق:

أخلصت البلاغة العربيّة التراثيّة للنصّ القرآنيّ، ولم تحاول أن تقترب إلا من النصوص العليا والمتعالية، ولم تحاول أن تقترب البتّة من منطقة النصوص العاميّة؛ إذ لم تكن ضمن دائرة اهتمامها نهائياً، وما ورد في مؤلّفاتنا من ذكر للعاميّة أو الاستدلال على نماذج منها إنّما كان لغرض التحذير و(الاحتراز) من الوقوع في العبث؛ فاستعمال الكلام العاميّ يعدّ عبثاً وخروجاً عن قواعد البلاغة.

وقد جعلت البلاغة العربيّة التراثيّة (المتكلم) محور ممارساتها، واعتمدته أساساً للكلام البليغ، المتكلم العالم بذهنيّة المتلقي وما يناسبه بحسب مقتضى الحال، فنشأة البلاغة في أحضان قضية الإعجاز القرآني كانت سبباً مهماً في هذه المركّزية، فمن غير الممكن أن يتحدثوا عن الدواعي البلاغيّة المتعلّقة بالمتكلم في كلام الله عزّ وجلّ- احتراماً واجلالاً لذاته سبحانه- وابتعاداً عن التقوّل على الله بغير حقّ⁽²⁾؛ ولأنّ هدف البلاغة هو تعليل إعجاز النصّ القرآنيّ والبحث عن أسباب جماليّة نصوصه لذا فقد اقترنت بشروط تنطبق على النصّ القرآنيّ والنصوص العالية من الفصاحة، فالبلاغة تعني في مفهومها الاصطلاحيّ: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته⁽³⁾، وهي مقتصرة على استعمال الألفاظ الفصيحة التي خلصت من شوائب العجمة، والعاميّة، والغرابية، ومخالفة القياس، والكراهة في السمع، والتعقيد⁽⁴⁾، فمن دون الألفاظ الفصيحة لا يستطيع المتكلم أن ينتج نظماً متراكباً بصورة صحيحة يمكن أن نسمة بالبلاغة.

يضاف إلى ذلك أنّ الوجود البلاغي في نشأته قام على المستوى الذوقي غير المحدّد بقواعد أو قوانين مستقلّة، إذ تكوّن من تراكم الخبرات المهدّبة للطباع والذائقة الفطريّة، هذا الوجود حضر في المعارف والعلوم المنضبطة من النحو وأصول الفقه؛ لأنّ العقل العربي في بداياته كان بحاجة إلى رؤية منضبطة للقرآن الكريم، فعلم النحو وأصول الفقه هو الأوّل

بالاستجابة لمتطلبات القرآن الكريم لتعلقها بمعايير الصواب والخطأ، والحلال والحرام، وما فيه من قضايا تحتم الرؤية المنهجية المنضبطة⁽⁵⁾. ثم جاء البحث البلاغي متناثراً في مؤلفات القرن الثالث عند الجاحظ (ت255هـ) وغيره من علماء البلاغة-متحرراً من صرامة التقعيد- ليصل في المرحلة المتأخرة إلى السكاكي (ت626هـ) حيث جنحت البلاغة نحو العلمنة، وقد ترتب على هذا المسلك أن وسمت البلاغة المتأخرة بالعقم والجمود⁽⁶⁾ بسبب اعتمادها على القياس الذي وضعه السكاكي وقعد البلاغة بموجبه.

. (سلطة الضوء)، بدء السلطة المركزية:

إن قابلية الثقافة العربية على استيعاب التشكلات اللغوية للثقافات الأخرى ميزة تحسب لها، فضلاً عن أن القائمين عليها بذلوا كل ما في جهمهم للمحافظة على كيانها مستقلاً فاضعوا ما جاءهم من نتاجات الثقافات الأخرى ولا سيما نتاجات الترجمة - المباشرة أو غير المباشرة- لسلطة ثقافتهم، فأظهرت الثقافة العربية تطوراً متسارعاً ولا سيما في ميادين العلوم اللغوية ومنها البلاغة، وامتد هذا الأمر إلى عصرنا الحالي حيث ظهرت مشاريع بحثية بلاغية وظفت المنتج الثقافي الغربي لخدمة ثقافتها، وتعاملت معه تعامللاً يحافظ على الهوية الثقافية العربية مع تميز خصائصها من دون محاولة إلغائها.

لقد كان حضور الثقافة اليونانية وبخاصة الأرسطية في الكتب البلاغية التراثية لافتاً للانتباه، ومثيراً للجدل والصراع والحوار في الوقت نفسه، وعلى الرغم من هذا الحضور اللافت فإن العلماء القدماء قد مارسوا عملية قراءة فاحصة للتراث اليوناني، تلك العملية التي تنفي عنهم صفة كونهم شارحين أو ملخصين فقط، إذ لجأوا إلى تأويل اجتهادي لكثير من المفاهيم والأفكار التي استعصت عليهم ولم يفهموها عند أرسطو وفسروها بما فرضه عليهم واقعهم الثقافي والديني والسياسي أساساً، بمعنى أنهم قرأوا أرسطو بعيون تراثهم البلاغي، ففهموه بطريقتهم الخاصة⁽⁷⁾، وفي كل الأحوال فإن هذه القراءة أثمرت عن ثلاث تيارات بيانية:

- بيان عربي متأثر بالفلسفة اليونانية، يجهر بالأخذ عن أرسطو بشكل مباشر أو غير مباشر خاصة من كتابي الشعر والخطابة، ويمثله المؤيدون للتأثير، أمثال: الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وابن وهب الكاتب، وعبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني.

- بيان عربيّ محافظ، لا يقرب الفلسفة اليونانية إلا مع كثير من التحفظ والاحتباس، ويمثله الرافضون للتأثير، أمثال: ابن قتيبة، وابن طباطبا، والآمدّي، والقاضي الجرجاني، والعسكريّ، وابن الأثير.

- بيان يوفق بين النظرتين، ويقول بمحدودية التأثير⁽⁸⁾.

ومع أنّ تيار البيان العربي المحافظ كان يحاول أن لا يقترب من الفلسفة اليونانية، إلا أنّه لم يرفضها مطلقاً وإنّما رفض التأثير غير المقنّن، فالبلغة العربية نشأت في بيئة لم تخل من هذا التأثير وعلماء البيان كانوا على علم بهذه الثقافة، والدليل على ذلك أنّهم تحدّثوا عن خطر العلوم العقلية- التي هي يونانية في منطلقها- مثل الفلسفة والمنطق على ناشئة الكتاب، ورفضوا الأمور التي لا يستفيد منها صاحب الكلام العربي شيئاً يخدم بيئته العربية⁽⁹⁾.

. انعكاس الضوء، ظهور المشاريع البلاغية المعاصرة:

مع التغيرات التي وسمت العالم المعاصر ظهرت في العصر الحديث مجموعة من المشاريع البلاغية التي وسمت بأنّها مشاريع تطويرية تجديدية، أبرزها:

- المشروع الأول: مشروع الدكتور محمد العمريّ عبر دعوته إلى العودة بالبلغة إلى الجذور، وتشكيل البعدين النظريين للبلغة المعاصرة (التخييل والإقناع). شكّلت المرجعيات اليونانية الأساس النظريّ في إنشاء الجانب التداولي الإقناعي، وشكّلت المرجعيات العربية الأساس التطبيقي عبر دراسة التوازنات الصوتية، يضاف إلى هذه الجذور توظيف المرجعيات الغربية الحديثة عبر المناهج اللغوية المتعدّدة وترتيبها في تكوين جديد للبلغة يحوي ما سبق من تراثها.

وقد كان العمري رائداً في دمج التخييل بالتداول وإنشاء مشروع البلغة العامة الجامعة بين الأمرين، والإفادة من الطرح الغربي في هذا المجال، محاولاً تطبيق هذا المشروع من خلال تبني المفاهيم والمنظومات المنهجية التي خرجت بالبلغة العربية التراثية إلى مجال الإقناع⁽¹⁰⁾.

- المشروع الثاني: مشروع البلغة الجديدة، حيث البلغة القديمة تمثلها بلغة أرسطو أو (خطابة أرسطو) وما نتج بعد ذلك من البلغة الأوروبية السائدة في القرن التاسع عشر وما قبله من ناحية أخرى. والبلغة التي يدعو إليها هذا التوجّه هي بلغة قائمة على الاستدلال، يتدرّج فيها الخطاب من فكرة إلى فكرة، لتأكيد قضية معينة أو دحضها، أو

تفنيدها، يتم فيها تسخير كلّ الإمكانيات الفكرية والعاطفية واللغوية للإقناع، وقد شهد هذا الحقل من الدراسات انتعاشاً ملحوظاً لحقل الدراسات الحجاجية في الساحة الثقافية العربية المعاصرة، مرتبطاً بإحياء البعد الحجاجي للبلاغة وترهين قضايا الإقناع فيها، الأمر الذي جعلها ملتقى لتكامل المعارف وتداخلها مع بعضها بعضاً، معنونة بـ (البلاغة الجديدة)⁽¹¹⁾.

- المشروع الثالث: مشروع الدكتور عماد عبد اللطيف الذي اختار العناية بخطابات الحياة اليومية، مستقلاً بمنطقة لم تقترب منها البلاغة العربية التراثية البتة، استدعتها ضرورات حياتية وبيئية مستجدة في الواقع العربي، محاولاً تقديم نظير وافٍ لهذه المنطقة عبر بحوث ودراسات عديدة⁽¹²⁾، اعتمد فيها تسمية مشروعه بـ (بلاغة المخاطب)، معترضاً على ممارسة المتكلم سيطرته السلطوية وهيمنته على المخاطب، فاعتنى بدراسة الاستجابات الجماهيرية وبخطاباتهم اللغوية وغير اللغوية، وظهر مصطلح (الجماهير الغفيرة) منتقلاً من الاهتمام بخطاب الفرد إلى خطاب الجمهور، مركّزاً على التواصل الجماهيري المعاصر، مقترحاً توجّهاً بلاغياً ينهض بهذه المنطقة غير المضاءة -من وجهة نظره- هدفه دراسة الاستجابات التي ينتجها الجمهور بعد تلقيه خطاباً ما، مطلقاً عليه تسمية (بلاغة الجمهور). والملاحظ في هذه المشاريع جميعاً أنّها لاحظت منطقة مفقودة في البلاغة التراثية العربية استوجبت طرحها، وحاولت افتراض شكل نظري أحياناً، وآخر تطبيقي لإيجاد ما يعوّض هذا الفقدان، مع إقرار أصحاب هذه المشاريع بأنّ البلاغة التراثية العربية لم تكن ناقصة في الأساس وإنّما رغبوا في جعلها متناغمة بشكل أكثر فاعلية مع تطورات المجتمع والتحوّلات الفكرية والثقافية والسياسية الحادثة فيه.

.(البلاغات المعاصرة) ومشاريع التطوير في البلاغة العربية التراثية:

إنّ التطوير المعرفي يحتاج إلى ضرورة ملحة توجب حصوله، وقد طبّق المؤلفون القدماء هذه الآلية في تأليفهم عامة، فهم لا يجوزون الكتابة في موضوع سبق أن كُتب فيه إلا لضرورة ملحة من إضافة أو تعديل أو تصحيح أو تجديد، إذ لا يجوز التعدي على مملكة المؤلف إلا وعذر الإضافة يكون مقدماً فيه، وهي وجهة نظر مقبولة إلى حدّ كبير .

ومسألة التجديد في الدرس البلاغي -قديمًا- تعدّ واحدة من المسائل التي أوجبت الكتابة في نمط من المؤلفات التي كان دافعها التنبيه إلى أمور أُغفلت ولم تؤخذ بنظر الاعتبار في الدراسات التي سبقتها⁽¹³⁾، وهو أمر استمرّ إلى العصر الحديث حيث ظهرت محاولات

وسميت بأنها تجديدية تطويرية، نشأت نتيجة حركة التنوير التي مرّ بها المجتمع العربي بعد الاحتكاك المباشر بالثقافات الأخرى، من أمثلة: محاولة خليل إدّه اليسوعي، وأمين الخولي، وسلامة موسى، ومصطفى ناصف، هذه المحاولات جميعاً تنبّهت إلى أنّ البلاغة العربية التراثية لم تتعرّض إلى مسألة ربط البلاغة بالمجتمع فحاولت - هذه المشاريع - تسليط الضوء على هذا الأمر ومحاولة معالجته من خلال تصوّر جديد للبلاغة المجتمعية⁽¹⁴⁾.

فيما بعد هذه المحاولات ظهرت مشاريع تطويرية - مدار بحثنا - حاولت التأسيس لبلاغة جديدة مختلفة عن البلاغة التراثية العربية، ف(البلاغة العامة) في محاولة الدكتور محمد العمري، وتركيزه فيها على الجزء التداولي / الاقناعي الذي لم تمنحه البلاغة العربية التراثية من اهتمامها الشيء الكثير لتحليل خطاباتها اليومية التي تصدر عن الفصحاء البلغاء من المتكلمين، عبّر عنه العمري بمفهوم البلاغة العامة بجناحيها التداولي والتخييلي. والبلاغة (الجديدة) الحجاجية الاقناعية التي حاولت تأسيس بلاغة عربية جديدة منظوراً إليها في بعدها التداولي الحجاجي، و(بلاغة الجمهور) التي حاولت التأسيس لبلاغة تركّز على خطابات الحياة اليومية العامة، واستجابات جمهور المتلقين: اللفظية وغير اللفظية.

وفي كلّ الحالات السابقة فإنّ هذه المشاريع تلقي الضوء على منطقة تجاهلتها البلاغة

العربية التراثية (الجمهور المحاور) ولأسباب وتبريرات يمكن أن نرجعها إلى أمرين مهمّين:

1- إنّ البلاغة العربية التراثية غير قائمة على مبدأ الحوار المتبادل أو التواصل الجماهيري في نسبة كبيرة منها، وهذه السمة كانت واضحة في البلاغة الغربية المستمدة من البلاغة اليونانية.

2- النصوص البليغة كانت تصدر عن متكلم واحد هو صاحب السلطة في الكلام في البلاغة التراثية العربية، والمتلقي - قد يكون واحداً أو أكثر - وهو لا يظهر في النصّ لأنّ المتكلم هو الذي يعبر - توقّعاً - عن المتلقي، هذه الفكرة بمجملها تعبّر عن المتكلم المقدّس في النصّ القرآني.

هذا الاختلاف الواضح في بنية العلم ووظيفته هو الأمر الذي جذب أصحاب هذه المشاريع إلى طرح محاولاتهم تلك، فطرحوا (بلاغات معاصرة جديدة) حاولت أن تستوعب هذين الأمرين معاً وأن تكون أكثر تفاعلاً مع المحيط المعاصر، فغيّروا الحدّ والمفهوم الذي قام عليه علم البلاغة، وتحولت البلاغة التراثية من علم مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع

فصاحته⁽¹⁵⁾، إلى ثلاثة مفاهيم جديدة ارتبطت بالجمهور بشكل مباشر بدلاً من أن كانت مرتبطة بالمتكلم والكلام ذاته، هذه المفاهيم نجملها بما يأتي:

- (البلاغة العامة) في مشروع العمري تعني: ((علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير أو الإقناع أوهما معاً، إيهاماً وتصديقاً))⁽¹⁶⁾، تطوّر هذا التعريف لاحقاً ليصبح: ((علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال))⁽¹⁷⁾، وهذا التعريف وإن كان يتقارب مع البلاغة التراثية العربية في نقطة التأثير إلا أنّ الأدوات والأساليب التي يستعملها العمري كانت أكثر اتساعاً وتداخلاً مع العلوم المعاصرة من البلاغة العربية من أمثلة: اللسانيات التداولية، ونظريات التواصل، والسيمائيات، والنقدية الأيدلوجية، والشعرية اللسانية وغيرها من المذاهب الغربية التي جذبت انتباهه وسلط الضوء عليها من خلال البلاغة التي يسميها بـ (البلاغة العامة)، وهي البديل لـ (البلاغة الخاصة) المقابل الموضوعي للبلاغة التراثية العربية.

- (البلاغة الجديدة) عند الحجاجيين مجموعة بلاغات بحسب التوجهات الموضوعية

فيها، ولكنّها اجمالاً تعني: القدرة على تعبئة النفوس، وتحريك العواطف، واستمالة الوجدان من خلال إيراد الحجج والأساليب المقنعة، لإشاعة الثقافة الديمقراطية عن طريق تعليم فن الخطابة (البلاغة)، وتربية القادة من أجل حمل المسؤولية التي تبدأ من حسن تدبير الكلام⁽¹⁸⁾، ويأتي تحمّل المسؤولية فيها من القدرة على الإقناع عبر سوق الحجج والأدلة. وهي تقابل (البلاغة القديمة) التي تعني (بلاغة أرسطو) وما ساد بعد ذلك مبنياً عليها.

- (بلاغة الجمهور) - في مشروع د. عبد اللطيف- هي: ((معرفة ومهارة ذات وظيفة مجتمعية رشيدة))⁽¹⁹⁾، ومسألة الارتباط بالمجتمع، وقضية التلاعب بالعقول، والخطاب الجماهيري المتصاعد، والاستجابات المتبادلة إنّما هي أمور متحققة في البلاغة اليونانية وما تطوّر عنها في الثقافة الغربية من بلاغات، إذ تشكّل هذه المقومات جزءاً منها ومن مكوّناتها لا البلاغة العربية التراثية، فصاحب المشروع حاول إعادة النظر في وظيفة البلاغة العربية التراثية وتسليط الضوء على الوظائف الحياتية التي لم تكن جزءاً من أهدافها الرئيسة.

يضاف إلى ما سبق أنّ البلاغة التراثية العربية تغيّرت وظيفتها وهدفها من مجرد التأثير في المتلقي وإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ⁽²⁰⁾ إلى أهداف جديدة تحوم حول الجمهور وتركز الضوء عليه، مستندة إلى آليات جديدة في التعامل مع الموضوع، مثل:

- التركيز على وسائل الإقناع وآلية توظيفها في مشروع العمري- لإحداث التأثير في المتلقي الجمعي عبر جمهور المتلقين للخطابة، إلى جانب التخيل الذي كان السمة الغالبة للبلاغة التراثية عبر العصور، هذه الوسائل تجاوزت الوسائل البلاغية المتعارف عليها في البلاغة التراثية العربية لتدخل مجالات أخرى من العلوم التي لم تتداخل معها البلاغة التراثية العربية.

- موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تجعل العقول تدعن لما يطرح عليها من آراء، أو زيادة درجة الاذعان، فالحجاج الناجح هو الحجاج الذي يوفق في جعل حدة الأذهان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل الدؤوب أو يجعلهم يمسكون عنه، أو هو ما وفق على الأقل في أن يجعل السامعين مهئين لانجاز ذلك العمل في اللحظة المناسبة⁽²¹⁾، فالمرتكز الذي يستند إليه الحجاج هو العقل واعتماد تقنيات الخطاب في الكلام.

- إن الهدف الذي تسعى له (بلاغة الجمهور) بحسب تصريح صاحب المشروع هو: ((توجيه البلاغة، بوصفها معرفة عملية، نحو معالجة مشكلات ملموسة تواجه المجتمع. لقد عرف العصر الحديث ازدهاراً غير مسبوق في صناعة التلاعب بالعقول، بواسطة الخطابات الجماهيرية. وتصاعد الخطابة الشعبوية في السنوات القليلة الماضية أحد الأمثلة الصارخة بهذا الشأن، وتمكين الأفراد العاديين من مقاومته بواسطة استجابات رشيدة، أطلقت عليها من قبل تسمية (الاستجابات البلاغية))⁽²²⁾.

والملاحظ أن المحاولات التجديدية القديمة التي نفذها قدماء البلاغيين في منهجيات تأليفهم للبلاغة، أو في توظيف الأساليب الناجعة للكشف عن قواعدها قد نجحت لأنها انبنت على دعائم العلم نفسه ولم تخرجه عن جاذبته أو تضيف له ما لا علاقة له بأصوله أو مفهومه أو هدفه، عكس المحاولات في العصر الحديث-مثلما لاحظنا- إذ حاولت أن تجرّ البلاغة العربية التراثية إلى مناطق ليست مرتبطة بها، إذ لم تكن مؤهلة لمعالجتها بموجب الحدود والمفاهيم التي وظفت لها، فضلاً عن أن هذه المعالجات جاءت لمشكلات لم تكن تعاني منها البلاغة العربية التراثية وإنما مرت بها البلاغة الغربية، وبالتالي لم تترك هذه البلاغات المعاصرة المجال حراً للبلاغة العربية كي تثبت استيعابها للتغيير أو التعديل في نقطة واحدة وبعدها يبدأ التغيير في نقاط أخرى وهكذا دواليك، وإنما جاء التغيير سريعاً وجذرياً ومن دون ترك فسحة مجال كي تذوب هذه الأفكار الوافدة في ظل عبائتها الثقافية

والفكرية والمعرفية، لا أن يحصل العكس بأن تسحب بجميع متعلقاتها التراثية لتخضع في تطبيقاتها لأدوات ليست أدواتها، وأساليب ليست أساليبها، وبيئة ليست بيئتها، والمعروف عن البلاغة أنها بنت بيئتها فكيف سيستقيم الأمر مع هذه البيئات المتداخلة والمتضادة في الوقت نفسه فيما بينها؟! وكيف سيتم تربية ذائقة المجتمع العربي وما فيه من توجهات ثقافية متنوعة ليصبح ملائماً لذائقة تختلف عن ذائقته؟!

(البلاغات المعاصرة)... الجذور المشتركة والامتدادات:

ارتبطت البلاغات المعاصرة بجذور ربطتها بأصولها التي انطلقت منها، وبما أنّ البلاغة العربية التراثية ارتبطت بهدف مقدس نشأت لأجله وهو خدمة النصّ القرآني والبحث عن علّة إعجازه، فإنّه من الضروري معرفة جذور مشاريع البلاغات المعاصرة التي تعدّ حركات تجديدية - من وجهة نظر بعض الدارسين- في الدرس البلاغي العربي، والوقوف على المنطلقات الأولى لهذه البلاغات، كي نستطيع التوقف على النقاط المشتركة بينهما من جهة، وبيان درجة تقاربها مع بعضها بعضاً من جهة أخرى.

لقد طرّحت المشاريع البلاغية في العصر الحديث نتيجة التغيرات التي وسّمت العالم المعاصر، وانفتحت على مجالات مختلفة وعلوم متعدّدة، فلم تعد محصورة في البعد الجمالي الصارم، بل إنّها بدأت تنزع نحو الموسوعية، ولكن هذه النزعة لم تكن سمة البلاغة التراثية التي نشأت في الجزيرة العربية وبقت محافظة على صرامتها الجمالية، وإنّما كانت سمة البلاغة التي نشأت في صقلية- موطن البلاغة الإقناعية- في القرن السادس قبل الميلاد⁽²³⁾، ولو نظرنا إلى جذور المشاريع البلاغية التي ظهرت في العصر الحديث لوجدنا أنّها تمتدّ بجذورها إلى (أرسطو) حالها حال البلاغة العربية التراثية في بعض جزئياتها⁽²⁴⁾، فالبلاغة العامة حملت جذور التأثر اليونانيّ، فما بين آراء السفسطائيين وأفلاطون وسقراط وأرسطو تشكّلت آراء العمري النظرية لمشروعه، وموقفه من الجمهور ينطلق من هذه الآراء وتوجهات أصحابها، فالعمري ((...أفاد من البلاغة اليونانية في مؤلفات الفلاسفة وبخاصة أرسطو وآثاره في الفلسفة الإسلامية، في بناء مشروعه، الذي لم يتوقف فيه عند حدود الأثر اليوناني الواضح، وإنما اتصل بالجهود البلاغية والنقدية العربية (...))⁽²⁵⁾، يضاف إلى ذلك أنّه في مجال التنظير استفاد من المناهج اللغوية الحديثة التي هي نتاج تطوّر مستمرّ لبلاغة أرسطو، وقد تعدّدت مجالات الإفادة عنده لتشمل: اللسانيات التداولية، ونظريات التواصل، والسيمائيات، والنقد الأيدلوجي، والشعرية اللسانية،

ومقامات التواصل الأدبي⁽²⁶⁾، فهو قد أفاد من كل تلك المناهج والحركات النقدية في إمداد البلاغة بوسائل جديدة لم تكن مألوفة لديها، وليبدأ التطبيق على نتاج من نتاجات النصوص الأدبية النثرية وهو فن الخطابة، فحاول الجمع بين الاتجاهين: الشعري والخطابي في البلاغة، بدلاً من تناوبهما بين القوة والضعف بحسب الظروف المختلفة للمجتمع الذي تحيط به، وهذا النموذج البلاغي (العام) يتعامل مع الخطابات المختلفة ابتداءً من الخطاب اليومي وانتهاءً بالخطاب الناقص عبر الخطابين الخطبي والشعري⁽²⁷⁾، وبذلك أصبحت البلاغة عنده غير محصورة بالبعد الجمالي بشكل صارم، بل أصبحت علماً واسعاً للمجتمع⁽²⁸⁾، ولكن من خلال الكلام الفصيح وليس العامي مثلما سنرى عند الدكتور عماد عبد اللطيف.

وبلاغة الإقناع التي تمثل اعتباراً للبعد الحجاجي الذي وسم البلاغة اليونانية منذ ميلادها، وكشفت عنه بوضوح آراء أرسطو طاليس في كتابه (الخطابة)، هذه البلاغة مثلت في محورها (الخطابة) و(المناظرة) جمهوراً من المتلقين، فجمعت بين متحاورين ومخاطبين مختلفين في اتجاهاتهم واختصاصاتهم؛ ((كأنما الحقيقة لا تظهر إلا في الجماعة، ولا يكاد يظفر بها الواحد حتى يحتاج إلى الشهادة من غيره))⁽²⁹⁾، فالحديث عن البلاغة الحجاجية الاقناعية، أي البلاغة في شقها المتعلق بوسائل الإقناع، والذي يدلّ علي مصطلح (Rhetorique) في أصله اليوناني، ارتبطت بالبلاغة الأرسطية، وأي طموح لتجديد البلاغة العربية- على وفق مبادئها- يمرّ عبر مطلب ملحّ من دراسة الخطابة عند اليونان والوقوف على هذه البلاغة، وفهم النظريات الحجاجية الحديثة لغرض استيعاب مختلف القضايا التي طرحها التراث اليوناني بشكل عميق، والإحاطة بالنسق النظري الذي وضعه له أرسطو بعد تاريخ طويل من الاسهامات التي قدّمها سابقوه من السفسطائيين ومعلمي الخطابة قبله⁽³⁰⁾.

أمّا (بلاغة الجمهور) في مشروع الدكتور عماد عبد اللطيف فقد ارتبطت بشكل أكثر قوةً بالبلاغة اليونانية، وبالمَنْجَز الأرسطي أكثر من ارتباطها بالمَنْجَز البلاغي العربي، بشهادة صاحب المشروع نفسه، وعبر محاور عديدة، منها ما استعرضه عن الفرق بين البلاغة التراثية والعربية وبين بلاغة الجمهور، إذ قال: ((ارتبط علم البلاغة لقرون عديدة بخدمة المتكلمين، إذ سعى نحو إمدادهم بإرشادات ونصائح تمكنهم من تحقيق أغراضهم من الكلام، والتي تمحورت غالباً في التأثير في المخاطبين))⁽³¹⁾، وكانت النتيجة إحكام سيطرة

المتكلمين عليهم، هذا الأمر وإن كان ينطبق على البلاغتين: العربية واليونانية إلا أنه رجّح المراد منهما في قوله: ((واكتسبت البلاغة بسبب ذلك سمعة سيئة في بعض المجتمعات، وانتقدت بقسوة لكونها تفتقد الى الاخلاق الى حد كبير))⁽³²⁾، وهذا الأمر لم يحصل مع البلاغة العربية وإنما رأيناها واضحاً في المنجز الأرسطي، يقول صاحب مشروع (بلاغة الجمهور): ((نجحت هذه الانتقادات في وصم البلاغة، وتحقير العمل بها، وكانت حافزاً لتغييرات مهمة في علم البلاغة على نحو ما رأينا في المنجز الأرسطي، الذي حاول إنقاذ علم البلاغة بواسطة إحداث تحويل جذري في ماهيته، وإدراكه معاً؛ ليصبح علماً للتواصل العمومي، لا تدريباً على مهارات التلاعب بالجماهير))⁽³³⁾، فالتحول الجذري الذي مس كل أجزاء البلاغة تحقق في البلاغة اليونانية، بينما حافظت البلاغة العربية على صرحها العتيق الذي وضعه السكاكي (ت626هـ) معتمداً على الأساس الذي وضعه سابقوه من جهابذة العلم، فلم تتغير قيد أنملة على الرغم من محاولات- التجديد- التي طرحها العديد من الدارسين في العصر الحديث، والسبب الذي نرجّحه من تقبل البلاغة اليونانية للتغيير في مقابل عدم تقبل البلاغة العربية هو أنّ التغيير الذي شهدته البلاغة اليونانية جاء عبر زمن متطاوّل، ومشكلات ظهرت في مسيرتها كانت تستدعي إيجاد الحلول بشكل تدريجي، هذه المشكلات لم تظهر في البلاغة التراثية العربية، ولم تعالج في زمن ظهورها.

المتلقي من الجمهور في مشاريع البلاغات المعاصرة:

ظهرت فكرة المتلقي الجمعي (الجمهور)- المستمع- منذ العصر الجاهلي حيث الانسان العربي كان يهتم بإبداع نصوصه الفصيحة، وصناعتها في صورة أدبية تعرض على الجموع المتراخمة في المحافل والأسواق الأدبية حيث اجتماع المتلقين لهذه النصوص، المتفاعلين معها، المرتبطين بها عبر استجاباتهم النقدية المباشرة والفطرية التي تعكس مدى اعجابهم أو رفضهم لتلك النصوص. ثم ارتبطت فكرة التلقي الجمعي - بعد ذلك- بالخطاب القرآني الذي سعى إلى إقناع متلقيه والتأثير فيهم حتى يستجيبوا لهديه، وكان هذا الارتباط بين النصّ القرآني والجمهور في أعلى درجاته، وكان لعلماء البلاغة الدور الكبير في الكشف عن إبداع النصّ القرآني، وأسراره الفنية وأبعاده الجمالية وإعجازه من خلال تأثيره في متلقيه، وكيفية تفاعلهم معه، ومدى استجابتهم له، فلم تكن العلاقة الرابطة بينهما- النصّ والمتلقي- علاقة استجابة وتصحيح مثلما هو الأمر في العصر الجاهلي، وإنما أصبحت العلاقة علاقة استجابة مطلقة لأنهم أدركوا أنهم أمام نصّ متكامل لم يجدوا فيه خطأ حتى

يصحّحوه، ولا انحرافاً ليقوموه لا بل إنّه أخذ بألباب قلوبهم واستولى على نفوسهم، وظهر نتيجة لهذا التفاعل المطلق لجمهور المتلقين مع النصّ القرآنيّ أمران يعكسان هذا التفاعل:

- الأمر الأول: إنّ النصّ القرآنيّ بفضل هذا التأثير أصبح محوراً نشأت حوله علوم العربيّة خدمة له وصوناً للسان، فظهرت العلوم الأساسيّة والعلوم الساندة، من: علم اللغة، والصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، وعلم الخط، وغيرها، وهذه العلوم وإن كانت تشكّل جهداً ذاتياً لمؤلفيها لكنها كانت تدور في ميدان عام من استقطاب رأي الجمهور الخاصّ من العلماء، والمتلقين من القراء والمستمعين.

- الأمر الآخر: إنّ شكل منطلقاً لنشأة قضية الإعجاز القرآنيّ للبحث عن أسباب هذا التأثير الذي يمثّل دليلاً حاسماً على صحّة النبوة، وقد ارتبطت أهم وجوه الإعجاز - نتيجة لذلك - بالمتلقي الجمعي (الجمهور) حيث ظهر رأي الإعجاز بالتأثير النفسي الذي يرى أنّ وجهاً من وجوه الإعجاز القرآنيّ يتمثّل في تأثيره بنفوس متلقيه، والإعجاز بالصرفة أي صرف المتلقين عن معارضة القرآن الكريم مع قدرتهم على الإتيان بمثله، والإعجاز بفصاحته أو بلاغته أو نظمه الذي يعلّل سبب التأثير الحاصل في متلقيه⁽³⁴⁾.

ولأنّ المتلقي يشكل طرفاً مهماً في العمليّة التواصلية فقد ذكر البلاغيّون القدماء في مؤلفاتهم الكثير من الملاحظات التي تشير إلى هذا المتلقي وعلاقته بالنصوص الإبداعية من خلال التفاعل المتبادل بين صاحب النصّ ومتلقيه في النصوص البشريّة، أو من خلال التفاعل المطلق التآثري بين النصّ القرآنيّ ومتلقيه، وربّما لهذا السبب لم يركّز البلاغيّون وهم يتعاملون مع المتلقي على استجاباتهم إلا من خلال المتكلم الذي يحمل سلطة الكلام البليغ، وسلطة فهم أذهان المتلقين، وركّزوا على أنّ المتلقي ينبغي أن يكون عارفاً بالفصاحة والبلاغة كي تحدث عمليّة التلقي والتأثر وإلا لو كان المتلقي جاهلاً بالبلاغة لم يحدث لأي نصّ إبداعي تأثيره المطلوب، فضلاً عن اهتمامهم بالظروف المحيطة بهذا التلقي من (مقام) الكلام، وبيان تأثيره المهمّ في عمليّة التلقي⁽³⁵⁾. وهذا الموقف من التركيز في عمليّة التلقي على المتكلم - المرسل للنصّ - واختياره ما يناسب جمهوره العامّ أو الخاصّ أخذ منعاً آخر في مشاريع البلاغات المعاصرة، فالعمرى - مثلاً - أظهر في تحليلاته اهتماماً بمقام المتلقي الجمعي من حيث كونه شعباً أو رعيّة، فقد ميّز بين الأدوات التي تستعمل لإقناع كلّ منهما بحسب مقامه، واهتم بالكيفية التي يتلقى بها النصوص، فضلاً عن احترام المتلقي الجمعي وزيادة اطمئنانه للكلام من خلال إيراد الكلام مع وجود سند من الواقع (مصادقية)⁽³⁶⁾.

ويعبر العمري بمصطلح (Auditoire) الذي يترجمه بالمستمع على وزن مجتمع، مرجحاً دلالة على الجمع، وهي بديل لمصطلح (مقام)، ويرى أنها تعني: ((المقام الخطابي بمكوناته الثقافية والزمانية والمكانية، فبدون التفاهم حول هذه المصطلحات سيتعذر التخاطب في هذا الموضوع))⁽³⁷⁾، فمفهوم مستمع تدلّ على المستمعين في سياق مكاني محدّد، وهي كلمة دقيقة لا تغني عنها كلمة (مقام) ولا كلمة (سياق) ولا كلمة (مستمعين) ولا (جمهور)⁽³⁸⁾.

ويشير العمري إلى أنّ المستمع صار يستوعب ((مصطلحات متعدّدة منتجة في سياقات مختلفة، لسانية ومنطقية وجمالية، مثل المستمع، والمخاطب والمتلقي، والقارئ والمتقبل ويعطها خصوصية المقام الإقناعي))⁽³⁹⁾، ولا يبعد أن يراد من المصطلح الحيّز الذي يتحقّق فيه التلقي وهو ((محفل فيه مستمعون معيّنون ضمن شروط زمانية ومكانية محدّدة. إذا قلنا بأنّ القلب النابض للخطاب التداولي هو المقام فإنّ قلب هذا القلب هو المستمع))⁽⁴⁰⁾، وبذا يترجم العمري هذا المصطلح بمفهومه الخاصّ ورؤيته بعد أن تطوّرت أفكاره واكتملت بهذا الصدد⁽⁴¹⁾.

فضلاً عن ذلك فهو يرى أنّ الأشكال الإقناعية المختلفة والحجج التي تبث هي التي تغيّر مواقف المتلقين وتسمليهم وتسيطر على قناعاتهم، وقد طبق ذلك على نصوص تراثية عربية جمعت بين التخيل والتداول، مقترحاً تكامل أدوات التحليل الشعري مع أدوات التحليل الإقناعي للوصول إلى البلاغة العامة التي تجمع الأمرين معاً، وهذا الأمر دفعه إلى الاهتمام بالمتلقي والآليات التي تقدّم له في سبيل إقناعه، مع الحرص على إظهار الفنون البلاغية التي سعت إلى توضيح هذه الحجج. معتمداً في تطبيقاته على آليات استندت إلى الاتجاهين.

وقد استقى العمري اهتمامه بالمتلقي من خلال اهتمام أرسطو به وحديثه عن الأطراف المكوّنة للخطاب والمساهمة في فعالياته، وهي المرسل (الخطيب)، والمتلقي (المستمع)، والرسالة (الخطبة)، مستفيداً ممّا ورد عنده في نظرية الاتصال الأدبي. ومثلما نلاحظ فإنّ التركيز من العمري وقع على الآليات التي تقدّم في سبيل اقناع المتلقي، فالغاية هي تحقيق الإقناع بغضّ النظر عن أي شيء آخر يخصّ المتلقي، وكأنّ الهدف هو عقله حيث الأدلة الساندة للاقناع.

وكذا ينبغي الحجاج على إنشاء علاقة رابطة مقنعة بين عبارتين، وهذا الأمر يعتمد بشكل كبير على بنية القياس المنطقي، ومن هنا يأتي الحكم على نتيجة القياس حكماً على الحجج المقدمة من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبّر عن قضايا محدّدة بأنّها صالحة أو فاسدة لا حكماً عليها بالصواب أو الخطأ⁽⁴²⁾، فالعلاقة بين النصّ الحجاجي والمتلقي قائمة على أساس منطقي استنباطي، أكثر من كونها علاقة تصوّريّة مثلما هو الحال في النصّ غير الحجاجي.

ويتكوّن النصّ الحجاجي- في شكله الرئيس- من مكونات ستة، الدعوى (النتيجة)، والمقدّمات أو تقرير المعطيات، والتبرير، والدعامة، ومؤشر الحال، والتحفظات أو الاحتياطات، وما يتصل منها بجمهور المتلقين هو أهمّ جزء وهو (الدعوى أو النتيجة) التي يقوم عليها الحجاج، فهي نتيجة الحجاج، وهي مقولة تستهدف استمالة المستمعين، تذكر صراحة أو ضمناً، فكل هذه المكونات تكون موظفة للوصول إلى النتيجة النهائية وهي تحقيق الاستمالة للمتلقين⁽⁴³⁾.

يضاف إلى ذلك فإنّ النصّ الحجاجي هو نص تقويمي، والقيمة مفهوم يُستنبط ممّا يقوله الناس، وما يفعلونه، وما تشيّد المجادلات، فهي جزء من المادة التفاعلية التي يقدر بها المستمعون الحجاج الذي يستحق التأييد⁽⁴⁴⁾، وبذلك تتقارب البلاغة الجديدة مع البلاغة العامّة في موقفها من جمهور المتلقين في تركيزهما على الآليات والأدلة التي تُحدث التأثير.

ولبلاغة الجمهور موقف من جمهور المتلقين، إذ أنّها تعدّ الاستجابات البلاغية أحد أهداف بلاغة الجمهور في بعدها الانتاجي، وتقوم بتحليل الاستجابات التي ينتجها الجمهور في سياقات تلقيهم لخطابات عموميّة في فضاءات واقعيّة وافتراسيّة، هذه الاستجابات تشترط بلاغة الجمهور كونها صادرة عن الأشخاص المنسوبة إليهم بشكل أصيل، وهم ينتجونها بوعي وإرادة كاملين، فضلاً عن أنّها تمثل استجابات راشدة عقلانية مقاومة للخطابات العمومية التمييزية أو الاقصائية أو المضللة التي تُنتج في الفضاء العام⁽⁴⁵⁾.

فبلاغة الجمهور حاولت جعل الحياة اليوميّة مادّة بلاغية قابلة للدراسة وفق مناهج التحليل البلاغيّ، مع إعادة صياغة مفهوم جمهور البلاغة، وجعله عامّاً انطلاقاً من أنّ الخطاب يكون عامّاً لكلّ الشرائح وبذا يكون المتلقي عامّاً.

وقد ميّز الدكتور عماد عبد اللطيف- صاحب المشروع- بين أنواع متعدّدة من استجابات الجمهور، الأول هو الاستجابة الآنية المباشرة، والثاني هو الاستجابة الآنية غير المباشرة، وبلاغة الجمهور ترتبط بالبلاغة العربية بشكل كبير من حيث الآلية ولكن بشكل معكوس، حيث قلب الباحث اتجاه البلاغة من الكلام إلى الاستجابة، فالبلاغة كانت ولا تزال الأداة الأساسية لتضليل الجماهير والتلاعب بمشاعرهم، فحاول الباحث من خلال مشروعه خلق توجّه جديد معاكس لوظيفة البلاغة القديمة يخلّص الجماهير من الأدوات البلاغية المضلّلة، ويسهم في إنتاج استجابات بليغة ترسي أسس تواصل حرّ، وعلى هذا الأساس صنّف صاحب المشروع البلاغة العربية إلى ثلاث بلاغات رئيسة، هي:

- بلاغة قرآنية مادّتها القرآن الكريم، وموضوعها الأبعاد البلاغية للقرآن الكريم، ووظيفتها التعليل لإعجازه البلاغي، والمشاركة في تفسيره.

- البلاغة الأدبية، مادّتها النصوص الأدبية شعراً ونثراً، وموضوعها الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية، ووظيفتها استخلاص الخصائص الجمالية للنصوص الأدبية وتحليلها.

- البلاغة الانشائية، مادّتها اللغة المستعملة في الحياة اليومية لتحقيق الإقناع أو التأثير، وموضوعها انتاج الكلام البليغ، ووظيفتها وضع معايير للكلام البليغ، ووضع إرشادات تمكّن المتكلّم من انتاجه⁽⁴⁶⁾.

وبذلك حسم الدكتور عماد عبد اللطيف الأمر بأنّ المنطقة التي تدور فيها كلّ هذه المحاولات للمشاريع التي طرحت هي منطقة البلاغة الإنشائية التي ينشأها جمهور من المتحاورين بلغة الحياة اليومية سواء كانت بليغة-مثلاً هو الحال في البلاغة العامّة، والبلاغة الجديدة- أو عاميّة مثلاً هو الأمر في بلاغة الجمهور، وهذا الأمر بحدّ ذاته يوجد فرقاً بين منطقة عمل البلاغة التراثية العربية والبلاغات المعاصرة من خلال موقفها من جمهور المتلقين عبر محاور متعدّدة من: الحوار، والإقناع، وطبيعة اللغة، ومنطقة العمل.

. مشاريع البلاغات المعاصرة... تقييم الجهود:

لا يخلو أيّ مشروع مطروح في المجال المعرفي من نقاط إيجابية أو سلبية، ونرى بعد هذه الجولة القصيرة في أروقة هذه المشاريع البحثية مجموعة من الآراء التي من خلالها يمكن الوصول إلى تقييم إجمالي لهذه الجهود، ومن هذه الآراء:

الأمر الأول: إنّ كلّ متن بلاغيّ تراثي لا يمكن قراءته إلا في ضوء وجهة نظر مؤلفه، وبيئته، ومحيطه، فالقراءة تبقى بنت عصرها ولا يجوز لنا تغيير المحيط الذي نهضت به تلك النصوص لنقول أننا نحاول التجديد، وهو أمر أشار إليه أصحاب هذه المشاريع أنفسهم، إذ يرى العمريّ أنّ ((أحسن قراءة قديمة للقديم هي القديم نفسه بما هو عليه))⁽⁴⁷⁾، وما هو عليه تعني قراءة القديم بجميع متعلقاته: أدواته، أساليبه، ظروف محيطه، مقاماته، فكيف نقرأ البلاغة التراثية العربية بأدوات أخرى وأساليب أخرى ومقامات أخرى، خدمت بلاغة أخرى ولغة أخرى؟! وإذا كانت هناك محاولة لتغيير مقومات البلاغة العربية فلا بدّ من أن نحاول تغيير المنظومة اللغوية بأكملها، فالبلاغة العربية كانت نتاج تفاعل متبادل مع العلوم اللغوية السائدة في عصور نشأتها، فإذا ما سعينا لتغيير ماهيتها وإحداث تغيير جذري فيها اعتماداً على ظروف ليست ظروفها فإننا نقطعها عن منظومتها اللغوية التي عاشت فيها وبذلك لن نستطيع الحياة وتموت؛ ولذلك فإننا لو أردنا التجديد في هذه البلاغة ينبغي لنا أن نقرأ البلاغة التراثية العربية في ظل ظروفها، ونستنبط قيمها ومقاييسها من خلال دراستها والبحث عن جزئياتها.

- الأمر الثاني: إنّ هذه المشاريع البلاغية تعاملت مع نظريات غربية استوعبت البلاغة الغربية القديمة -أغريقية ولاتينية- وكانت امتداداً لها، فوقف أصحابها أمام هذه النظريات بإعجاب جعلهم يعتمدونها أساساً للجانب التنظيري لمشاريعهم، ومقياساً يستندون إليه في التطبيق، وهذا الأمر لا يمكن عدّه تجديداً، فهو لا يعدو أن يكون بناء لنظرية تناسب البيئة العربية من خلال مرجعية أرسطية، والعملية بمجملها أشبه بترجمة لجهد غربيّ مع تطبيق من التراث العربيّ. وهكذا بلاغات- في كلّ أحوالها- لا تشكّل علماً أو فناً يوازي البلاغة التراثية العربية، بل هي كمّ من الأساليب والأدوات التي تم اقتراضها من البلاغة الغربية وغيرها ومن ثمّ تطبيقها على البلاغة العربية، وفي واقع الحال فإنّ معظم الأساليب البلاغية تتوافر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، وإنجاز مقاصد حجاجية، وإفادة أبعاد تداولية⁽⁴⁸⁾؛ فكانت التطبيقات البلاغية ممكنة لهذه المشاريع.

- الأمر الثالث: التطبيقات التي وردت في هذه المشاريع لم تكن شاملة لكلّ جزئيات البلاغة التراثية العربية، وإنّما ركّزت على جانب دون آخر، أو طبّقت على جزء من التراث وتركت الباقي منه، أو ركّزت على جمهور المتلقين والتغذية المرتدة منهم وتركت محاور الكلام الأخرى؛ والسبب هو أنّ الجهود كانت فردية من قبل أصحابها فلم يستطيعوا الإحاطة بكلّ

الجزئيات أو كلّ المحاور المطلوب إجراء التطبيق عليها، يضاف إلى ذلك أنّ أصحاب هذه المشاريع ربّما كانوا يتأملون أنّ تأخذ مشاريعهم الاهتمام الذي تستحقّه من حيث إنهم فتحوا الباب أمام الدارسين كي يدعموا مشاريعهم بدراسات تطبيقية لاحقة في المجالات التي لم يتمّ التطبيق عليها، ولكن الثقافة التي تحلّى بها أصحاب هذه المشاريع ربّما لم تكن تتوافر لدى كلّ الدارسين ولهذا لم تأخذ هذه المشاريع مداها من البحث إلا من خلال نقد المشروع وبيان إيجابياته أو سلبياته⁽⁴⁹⁾.

وما نريد قوله هنا إنّ النقاد والبلاغيين حتّى لو اعترفوا بروج هذه التوجّهات (البلاغة العامّة) و(البلاغة الجديدة) و(بلاغة الجمهور) وصلاحيّتها للتطبيق إلا أنّها تبقى بمثابة الظلّ الذي يحوم حول البلاغة التراثيّة العربيّة ولا يمسّها في حالة فشل ربط مقوماتها بها، فما دامت هذه التوجّهات لا تستطيع أن تعكس صورة من صور البلاغة التراثيّة العربيّة: منطلقاتها، مضمونها، أهدافها، إذاً هي شيء آخر لا ينتهي له، وبذا فهي تكون بمثابة الظلّ الذي يحاول أن يتمسّك بها وهو مختلف عنها في رويّتها، ومقترحنا أن تحمل هذه المشاريع تسمية أخرى غير تسميتها ب(البلاغة) فهذه المشاريع يمكن أن تندرج ضمن علم مستحدث يوازي التغيّرات المعرفيّة المتسارعة الحاصلة في العصر الحديث، ولأنّها متعلّقة بالخطاب بشكل مباشر فمن الأفضل أن تفتن هذه المشاريع بتسمية متعلّقة بالخطاب لا البلاغة فهي إليه أقرب.

- الأمر الرابع: اعتمدت هذه المشاريع نظاماً مصطلحيّاً خضع لاجتهادات الباحثين، وحدود اطلاعهم ومحاولاتهم ترجمة ما اطلعوا عليه في اللغات الأجنبية التي تيسّر لهم الإلمام بها، وهنا نجد مصطلحات كثيرة قد تداخلت مفاهيمها، ولم تكن مستقرّة بالشكل الذي يحدّد توجّهها في السياق العامّ، ولعلّ من أهم الأسباب التي جعلت البون شاسعاً بين الاختيارات الإصطلاحية للباحثين العرب، هو التفاوت في نقل هذه المعرفة النظرية من اللغات الأجنبية، فمنهم من يترجم مباشرة عن الأصل الأجنبي، ومنهم من يأخذ عن المترجمين من دون الإطلاع على الأصل الذي أخذ منه، ونتيجة لهذا النقل غير المباشر قد يحصل لبس على الباحث، وينتج عنها سوء تطبيق على النصوص في السياق العربي المستهدف عبر عملية الثقاف والافتتاح.

- خاتمة البحث ونتائجه:

- بعد هذه الجولة السريعة في مشاريع البلاغات المعاصرة توصلنا إلى مجموعة من النتائج التي نستعرضها بإيجاز، وكالاتي:
- إن مشاريع البلاغات التي طُرحت في العصر الحديث لم تستمد مشروعيتها من القرآن، وإنما استمدت مشروعيتها من البلاغة اليونانية وما تبعها من تطورات على البلاغة فيما بعد لينتج لنا المذاهب اللغوية الحديثة.
 - لا يمكن عدّ هذه المشاريع مشاريع تطويرية في البلاغة لتباينها عنها في مفهومها ووظيفتها وهدفها والبيئة المحيطة بها.
 - حاولت هذه المشاريع التأسيس لبلاغات جديدة تختلف عن البلاغة التراثية الأصل، مع محاولة جرّ البلاغة العربية إلى منطقة ليست مرتبطة بها إطلاقاً.
 - تباينت هذه المشاريع مع جزئيات البلاغة التراثية العربية، وهي إلى بلاغة أرسطو أقرب، فهي قد أفادت منها ومن المناهج اللغوية الحديثة التي نتجت عنها.
 - المتلقي الجمعي لهذه البلاغات يختلف عن المتلقي الجمعي للبلاغة التراثية العربية، فقد أخذ منحنى آخر قائماً على الحوار والاقناع.
 - المتن البلاغي ينبغي أن يُقرأ في ظلّ الظروف التي انتجته لا في ظل ظروف انتجت بلاغة أخرى تختلف عن بلاغتنا.
 - هذه المشاريع البحثية تبقى في منطقة الظلّ بالنسبة للبلاغة التراثية العربية ما دامت لم تستطع الاقتراب من روحيتها.
 - المصطلح الأنسب لهذه المشاريع هو (الخطابة العامة)، أو (الخطابة الجديدة)، أو (خطاب الجمهور) فهي إلى الخطاب أقرب منها إلى البلاغة؛ لأنها قائمة على مقومات الخطاب أكثر من البلاغة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 (ينظر في الحديث عن هذا الأدب : د. ممدوح فراج النابي، السلطة الخادعة...والوعي الزائف، جمهور الرواية...رواية الجمهور، ضمن كتاب: بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، ص 416.
- 2 (ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة العربية، قراءة أخرى، مكتبة ناشرون، ط1، لبنان، 1997م، ص 212، ومهدي السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، المكتب الاسلامي، دمشق، 1977م، ص 72.

- 3) ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية/لبنان، ط1، 2003م، ص 20.
- 4) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تح فوزي عطوي، بيروت: دار صعب، 1968، 1/ 90-91، وابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، لبنان، 1982م، ص 64، والقزويني، الإيضاح، ص 17، و ابو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981م، ص 81.
- 5) ينظر: عيد بليغ، نشأة البلاغة العربية (قراءة أخرى)، 156-157.
- 6) ينظر: المصدر السابق، ص 157.
- 7) ينظر: الأخضر الجمعي، نظرية الشعر، 14، 65.
- 8) ينظر: رامي جميل سامي، التأثير اليوناني في النقد والبلاغة العربيين، من منظور الدراسات العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014م، ص 30-34.
- 9) ينظر: ابن قتيبة، أدب الكاتب، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 64-65، وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة المصطفى، ج3، مصر، 1939م، ص 9-10، والأمدي، الموازنة، ص 377-378.
- 10) ينظر من مؤلفات الدكتور محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق، ط1، المغرب، 2005م، والبلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، وتحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر: الكثافة- التفاعل- الفضاء، وفي بلاغة الخطاب الاقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2002م.
- 11) ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، دار ومكتبة عدنان، ط1، بغداد، 2013م، ص 13، 14.
- 12) ينظر على سبيل المثال من بحوث الدكتور عماد عبد اللطيف: بلاغة المخاطب: البلاغة العربية من انتاج الخطاب السلطوي الى مقاومته، ضمن كتاب: (السلطة ودور المثقف)، جامعة القاهرة، 2005م، وموقف افلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الشارقة، مج 5، ع3 (2008). ولماذا يصفّق المصريون؟.
- 13) ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار احياء العلوم، ط6، بيروت، 1997م، ص 7، وابن بسام الشنتريني، لذة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979م، 1/ 2.
- 14) ينظر: أصول البلاغة عند العرب (مقال)، خليل إدّه اليسوعي: 704، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، والبلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى، وفنّ القول، أمين الخولي.
- 15) ينظر: القزويني، الإيضاح، ص 20.
- 16) البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول: 6، وينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، ط1، المغرب، 2013م، 17.
- 17) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتأريخ والقراءة، ص 35.

- 18 (حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج ، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2010م، 7/1.
- 19 (صلاح حسن حاوي، عبد الوهاب صديقي، بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، دار شهريار، ط1، العراق، 2017م، ص 25.
- 20 (ينظر: علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط، ص 75.
- 21 (ينظر: د. عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن كتاب: الحجاج مفهومه وتطبيقاته، 32/1.
- 22 (صلاح حسن حاوي، وعبد الوهاب صديقي، بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، ص 25.
- 23 (ينظر: بول ريكور، البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، ترجمة مصطفى النخال، مجلة فكر ونقد، العدد 16، المغرب، 1999م، ص 109، وهنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 1999م، ص 15-16.
- 24 (في رأي من ذهب إلى وقوع التأثير اليوناني.
- 25 (زينب ميثم علي، نقد البلاغة، دراسة في المشروع البلاغي للدكتور محمد العمري، دار الرافدين، ط1، بيروت، 2018م، ص 40.
- 26 (ينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتأريخ والقراءة، ص 183.
- 27 (ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول: 78.
- 28 (ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول: 65.
- 29 (فقه الفلسفة، الفلسفة والترجمة، طه عبد الرحمان: 1/ 256-257.
- 30 (ينظر: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج، الاصول اليونانية، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 2014م، ص 11، 12.
- 31 (ينظر: بلاغة التخاطب، البلاغة العربية من انتاج الخطاب السلطوي الى مقاومته، ضمن (السلطة ودور المثقف)، جامعة القاهرة: 7-35، 12-14.
- 32 (ينظر: موقف افلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الشارقة، مج 5، ع3 (2008): 227-229.
- 33 (د. صلاح حسن حاوي، ود. عبد الوهاب صديقي، بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، ص 25.
- 34 (ينظر : النكت في اعجاز القرآن: 110، وبيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول، مصر: دار المعارف، ط4، ص 70، وإعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، مصر: دار المعرفة، 1954م، ص 35.

- 35 (ينظر: البيان والتبيين، 1/ 54- 55، 64، 87، والنكت في إعجاز القرآن، ص 75، ودلائل الإعجاز، تح:محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة، 2004م، ص87، 258، ومفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، منشورات دار الكتب العلمية/لبنان، ط1، 2000م، ص256، و الايضاح، ص 20، 28- 29
- 36 (ينظر: في بلاغة الخطاب الاقناعي: 144- 145، والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 145.
- 37 (محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 14.
- 38 (ينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 22.
- 39 (محمد العمري، اسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 39.
- 40 (محمد العمري، البلاغة العامة، النسق المصطلحي والخريطة النصية، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد 9، المغرب، 2016م: 30.
- 41 (ينظر: زينب ميثم علي، نقد البلاغة، ص 178.
- 42 (ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي، ضمن الججاج ، مفهومه ومجالاته، 7/ 2 .
- 43 (ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي، 8/ 2 .
- 44 (ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي، 8/ 2 .
- 45 (ينظر: د. صلاح حاوي، ود. عبد الوهاب صديقي، بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات، 41، 42.
- 46 (ينظر: سعيد بكار، في مفهوم بلاغة الجمهور، ضمن كتاب: بلاغة الجمهور، مفاهيم وتطبيقات. 79.
- 47 (تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر: 15.
- 48 (ينظر: صابر الحباشة، من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص، حجاجية المفردة القرآنية نموذجاً، ضمن كتاب: الحجاج، مفهومه وتطبيقاته في البلاغة العربية، 2/ 139.
- 49 (ينظر: بو عافية محمد، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع محمد العمري، رسالة ماجستير، جامعة سطيف، الجزائر، 2015م.